متابعة

جوانا والش: المقاطعة الأكاديمية وسيلة سلمية للاعتراض على سياسات الدول الممارسة للإرهاب

يؤكّد الكتّاب والفنّانون الذين تنازلوا عن منَح «الهيئة الألمانية للتبادل الثقافي» رفضهم مساوَمتهم في الاعتراض على جرائم الإبادة الصهيونية في غزّة، وتهديدَ حرّيتهم في الحديث عن هذه الجرائم داخل أوروبا

تنازُلات بالجملة عن منح ثقافية ألمانية

لن نكون شركاء في الإبادة

برلين ـ **يزن التميمي**

بإعلانها، مؤخّراً، رفضها منحةً لإقامة فنّية في العاصمة الألمانية، مقدَّمة من برنامج «فنانون في برلين»، أصبحَت الكاتبة الأيرلندية جوانا والش رابع شخصٍ يرفض، منذ بدء العدوان على غزّة، منحةً أو الترشّح لمنحة، مِن «الهيئة الألمانية للتبادل الثقافي» (DAAD) التي تصف نفسها بأنّها صاحبة أضخم برنامج دعم ثقافي وأكاديمي في العالم؛ حيث تتوزّع مصادر تمويلها بين أربع جهات رئيسية هي: وزارة الخارجية الألمانية، ووزارة التعليم والبحث العلمي، وزارة التطوير والتعاون الاقتصادي، والاتحاد الأوروبي، فضلاً عن تبرُّعات من جهات خاصّة.

وتُعرف الهيئة عالمياً من خلال المنح السخيّة التي تُقدّمها للطلّاب الراغبين في الدارسة في ألمانيا بشكل كامل، أو الالتحاق ببرامج التبادل الطلابي، فضلاً عن دعم برامج الدكتوراه، أو الإقامات الفنّية التي يتخصّص بها برنامج «فنّانون في برلين». إلى جانب ذلك، تلعب المؤسَّسة دوراً في دعم تدويل الجامعات الألمانية ودعم برامج تعليم اللغة الألمانية، خصوصاً في ما يُسمّى البلدان النامية، فضلاً عن تقديم الاستشارات لصنّاع القرار في السياسية الثقافية والتعليمية، كما تنشط في إعداد حملات دعائية للجامعات الألمانية، وتوفير الدعم المادّي لإصدار منشورات ثقافية وعقد مؤتمرات لها في دول مختلفة، فضلاً عن كونها صاحبة التوكيل المحلّي لمشروع تبادُل الطلّاب الأوروبي «إيراسموس».

أمّا برنامج «فنانون في برلين»، والذي أعلنت جوانا والش ردّها منحةً مقدَّمة منه، فيتخصّص في تقديم الإقامات الفنّية في برلين، ويحصل، إلى جانب موازنته من وزارة الخارجية، على موازنة من مجلس شيوخ ولاية برلين، حيث يُقدّم كلَّ عامٍ عشرين منحةً لفنّانين أجانب للإقامة سنةً كاملةً في العاصمة الألمانية، بهدف التفرّغ للإنتاج في حقول الفنون البصرية والأدب والموسيقى.

وفي رسالتها إلى رئاسة الهيئة الألمانية للتبادل الثقافي، متمثّلةً برئيسها البروفيسور جويبراتو موخرجي، أكّدت والش أنّ السبب الرئيسي الذي دفعها لرفض المنحة، هو قرار اتّخذه مجلس إدارة «جامعة كولونيا»، التي يرأسها موخرجي نفسُه، بإلغاء دعوة كانت موجَّهة لأستاذة الفلسفة، الأميركية يهودية الديانة نانسي فريزر، لإلقاء محاضرة ضمن أحد البرامج البحثية، وذلك على خلفية توقيعها رسالةً مفتوحة تدعو إلى مقاطعة أكاديمية عالمية لـ«إسرائيل» بسبب عدوانها على قطاع غزّة.

وترى والش أنّ إلغاء دعوة فريزر على خلفية آرائها السياسية يُهدّد بشكل رئيسي، حرّية التعبير في ألمانيا وعموم أوروبا، مؤكّدةً، في رسالتها، تأييدها هي أيضاً الدعوة إلى المقاطعة الأكاديمية لـ «إسرائيل»، حيث أنّ «المقاطَعة الأكاديمية عُرفت تاريخياً كوسيلة سلمية للاعتراض على سياسات الدولة الممارسة للإرهاب، كما حصل مع جنوب أفريقيَا في الثمانينيات». وتُقارن والش بين هذه الدعوات السلمية وما قامت به «جامعة كولونيا» من منع للأكاديمية الأميركية من التحدّث إلى الطلاب، مشيرةً إلى أنّ دعوات المقاطعة تستهدف مؤسّسات دولة، على عكس ما فعلته الجامعة من استهداف شخصي.

وتشير والش، في رسالتها، إلى أنّها اتّخذت بدورها خطوات كثيرة في الفترة الأخيرة للاعتراض على الأعمال الإبادية في فلسطين، وهو الأمر الذي قالت إنّه يدفعها للتضامن مع الأكاديمية الأميركية والاعتراض على منع كلمتها، وأنّها بذلك تنضمّ إلى ثلاثة فنّانين آخرين رفضوا في الأشهر الأخيرة منحاً مقدّمةً من «الهيئة الألمانية للتبادل الثقافي» بسبب سياساتها الإقصائية ومحاولة فرض أجنداتها على المشاركين في برامجها العالمية، وبهذا تقطع والش الطريق أمام الهيئة لاستخدام هذه المنحة لابتزازها فكرياً أو الدفع بها للتماهي مع السياسات الخارجية لألمانيا.

المنَح أداةُ ابتزاز فكري للتَماهي مع السياسات الألمانية

وفي ختام رسالتها، جدّدت والش تأسّفها للتنازل عن المنحة، قائلةً إنّها، رغم كلّ شيء، تُثمّن ما كان رئيس الهيئة جويبراتو موخرجي يصفه بالالتزام الشخصي بـ«دعم شخصيات تعمل على إثارة النقاش العام داخل ألمانيا»، لكن هذا يتعارض - بحسب والش - مع السياسات التي تمارسها هيئات ومؤسّسات ألمانية عديدة، بما فيها الجامعة التي يرأسها، ما يُحتّم مقاطعة هذه المؤسّسات ومواجهتها، فهي، رغم تقديرها للدعوة التي وُجّهت إليها، تُؤكّد على أنّه لا يوجد تكريم أو مكانة يمكن أن يجعلها تُساوم في الاعتراض على أيّ جُرم يتعرّض إليه الضحايا في هذا الصراع، أو تهديد حرّية الفنّانين والأكاديميّين لمناقشته داخل أوروبا، متمنّيةً أن تُعيد الهيئة الألمانية النظر في سياساتها، بحيث يُصبح ممكناً لها مستقبلاً أن تقبل دعوتهم والمنح التي يقدّمونها. والفنّانون الثلاثة الذين تُشير إليهم والش، فهُم يوناس ستال؛ وهو فنّان تشكيلي هولندي، وإيفا جاناكوبولو وهي فنّانة يونانية، حيث رفضا في نيسان/ إبريل الماضي ترشيحاً لإقامات فنّية في برلين، فضلاً عن الكاتب البريطاني البارز تشاينا ميفيل الذي تخلّى عن منحة جارية منذ مطلع العام.

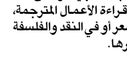

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

معرض

مقترحاتٌ لتجنّب النظرة المباشرة إلى الأشياء

إيفا لوتز مُساءلة العالَم من الصفر

الحدود، إعادة التفكير في طرق التواصُل، والمناطق الخاضعة للديناميكيات الاستعمارية؛ موضوعاتٌ تتحرّك في أعمال الفنّانة الإسبانية النمساوية

مدريد ـ **العربي الجديد**

«قناة إيزابيل الثانية» (من المعرض)

بسؤال «ما هذا؟»، وهو عنوان معرضها المُقام في متحف «الملكة صوفيا» بمدريد حتى الثاني من أيلول/سبتمبر المقبل، تُحاول الفنّانة الإسبانية النمساوية إيفا لوتز (فيينا، 1940) الإشارة إلى طريقة معيّنة لفهم نشاط الفن. هذه الطريقة هي منح الكائن الإنساني الحرية لمساءلة العالَم وأشيائه من الصفر.

تعرض لوتز مجموعة مُختارة من أعمالها التي تبرّعت بها مؤخّراً للمتحف، إضافة إلى تركيبات اشتغلتها في السنوات الأخيرة، وأُخرى نُفّذت خصّيصاً للمعرض: لوحات ومنحوتات وتركيبات ومقاطع فيديو وسلاسل صور فوتوغرافية وأعمال صوتية تُقدّم جميعُها فكرة شبه كاملة عن مشروع الفنّانة الذي لا يمكن فهم المَشهد الفنّي المعاصر في إسبانيا من دون التوقّف عنده.

يمكن تفسير كلّ عمل أو قطعة أو لوحة في القاعة بوصفه سؤالاً تُوجّهه الفنّانة إلى العالَم من أجل إعادة بناء مفهومات وأفكار راحت تتغيّر بسبب العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. إنّها أسئلة راهنة حول مجتمعاتنا تمسّ جوهر الوجود الإنساني. الحوار، الحدود، التطوّر الرقمي، إعادة التفكير في طرق التواصُل بين البشر والكائنات الأخرى، المناطق الخاضعة للديناميكيات الاستعمارية؛ كلّها موضوعات تتحرّك في أعمال لوتز التي وصلت إلى مدريد عام 1965.

إضافة إلى هذه الموضوعات والأسئلة، يثير المعرض تساؤلات عن الرؤية المُعاصرة للفنّ وطرق التأويل والتفسير السائدة، والتعرّض المُفرط للصور واللوحات؛ خصوصاً في ظلّ تأثير الثقافة الرقمية والاستهلاكية، وعواقب ذلك على المتلقّي وعلى التجربة مع الأشياء المحيطة.

ضمن هذا المعنى تطرح الفنّانة سؤال: كيف يمكننا الوصول إلى ما هو مخفيّ في زوايا الرؤية العمياء؟ قد يكون الجواب في عملها الموسوم بـ«قناة إيزابيل الثانية»، حيث تُقدّم الفنّانة مقترحات لتجنّب النظرة الأمامية المباشرة والسطحية التي تحجب رؤية الأشياء ببعدها الحقيقي. إنها استراتيجية أولئك الذين جرى إبعادهم وإقصائهم تاريخياً من المتن، إلى هوامش الثقافة، مثل النساء. «إن قراءة العالم والنظر إليه بهذه الطريقة الجانبية، سيسمح لنا، بفهم كلّ ما هو مخفي، ومُعتم. فمن المناجم المُعتمة تُستخرج المواد الخام التي تدعم أسلوب حياة مجتمعاتنا».

كيف يمكننا الوصول إلى ما هو مخفيّ في زوايا الرؤية العمياء؟

هكذا تُصرّ الفنانة الإسبانية النمساوية على استخراج وإظهار ما تخفيه المجتمعات من آثار سلبية، واضعة إيّاها في مواجهة الفعل الإنساني الذي تسيطر عليه الأفكار المسبقة، والأيديولوجيات السياسية، والخطابات الزائفة، مشجّعةً في الوقت نفسه على الدخول في نسيج العمل الفنّي، كمكان جميل يمكن أن يجمع البشر.

إيفا لوتز إحدى أبرز التشكيليّين في إسبانيا، تنتمي إلى جيل الفنّانين الذين جدّدوا المشهد النحتي في السبعينيات والثمانينيات، من خلال مقاربات أعطت الأولوية للحرفية وعملية العمل الفنّي. فازت بـ«الجائزة الوطنية للفنون التشكيلية» عام 1994، وشاركت في العديد من المعارض في نيويورك وباريس وفيينا والبندقية والمكسيك وغيرها.

صوت جديد

كتابة تنتمي إلى أجيال وحساسيات متداخلة

مهنّد ذويب

تقف هذه الزاوية من خلال أسئلة سريعة مع صوت جديد في الكتابة العربية، في محاولة لتبيّن ملامح وانشغالات الجيل العربي الجديد من الكتّاب

الرباط ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

لا أعرفُ إن ظلّ أحدٌ لم يهرس «الشعورُ بالهزيمة» عظامَه، جرّاء ما جرى ويجري، ولا أعرف إنْ كانَ أحدٌ نجا من موت أشياء داخله. أحسُّ ما أحسّه خليل حاوي في «الرعد الجريح»: «ما لثقلِ العار.. هل حُمّلتُهُ وحدي؟»، وأمتلئ بهواجسَ عدّة؛ الإنسان الذي خذلته إنسانيّته، الفرق بينَ الشهادة والمشاهَدة عموماً (داخل جغرافيا فلسطين)، التجاسر الذي هو فوق قدرة البشري، مسؤولية الشعر في «زمنٍ مضادٍّ للشعر». وأهجس بالأسئلة.. كيف ما زلنا قادرين على الاستمرار، كيف هذا العالَم لا يطلُب «استقالةً جماعية» من دوره المسرحي (والسخيف) في السعي والمواصلة؛ كان سقطَ وجهُ قابيل/ قايين.. حين افتتحَ ماراثونَ القتلِ فوق الأرض، وكان دمُ هابيل صارخاً إلى الله من التراب، كيف هذا العالَمُ يستطيع الاستمرار في الفُرجة بهذه الطريقة، وهو ينتظر مخلّصاً من نوعٍ ما ينتصر لصراخ أطفال بين جثث أهلهم، وهو ما زال يُؤمن أنّ ثمّة متّسعاً لبيانات استجداء مؤسّسات القانون والعدل والشرعية و(...). هواجس كثيرة وأسئلة وفراغ هائل في الصدور، ويبدو السياق الفلسطيني برمّته فيها متعذّر الشرح أمام آلاف الأسئلة والجمل والكلمات والكتابات العالقة في الحلق.. خجَلًا «... والخجل عاطفة ثورية»، وأمام آلاف التناقضات التي تصبغ يوميّنا بالبُقع المريضة والداكنة والرمادية، «مرقّطةٌ» وتكاد تصبح سوداء كلُّها فروتُنا التي تحت الحمراء (التي من دمِنا).

■ كيف تفهم الكتابة الجديدة؟

لا أعرفُ فعلاً ما إذا كان بإمكاننا الحديث عن كتابة جديدة (عكس قديمة)، لها ملامح واضحة يمكن تأطيرها وتقعيدها وبالتالي فهمُها. لكن يمكن القول إنّ كتابة «اليوم والآن» تنطلق من زاوية قلق وخذلان شخصيّ، وانكفاء على الذات، والانتباه للهامشيّ وغير المنتبَه إليه، فقد خفتَ فيها الصوت المبشّر، وتراجعت الصُراخية، و«انهزمت» السرديات الكبرى. ولأنّ النصوص «دنيوية» كما رأى إدوارد سعيد، فإنّ ما يُنتَج الآن، باعتقادي، يتماهى مع سياق مرحلة ما بعد الحداثة وسماتها، ومع طبيعة التحوّلات الاجتماعية والسياسية والرقمية أيضاً. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فإنّ الكتابة (اليوم والآن) أصبحت أقلّ تشبّثاً بالقوالب والأجناس والأشكال والتصنيفات الأدبية؛ فهي تنطلق حرّة بشكلها الخاصّ، وتصوّرها الخصوصي لشكل العملية الإبداعية، وهي ربّما تنأى بنفسها عن النقد الذي ما زال يستخدم الأدوات القديمة لقراءتها، ولا تنتظره، تماماً كما لا تضع في حسبانها أن تخيِّب أو تلبّي أفق انتظار قارئ ما، هي كما هي حقيقية وشفّافة، ولا تشبه إلّا أصحابها.

■ هل تشعر نفسك جزءاً من جيل أدبي له ملامحه وما هي هذه الملامح؟

قد يكون «غياب الملامح» المشتركة هو بحدّ ذاته ما يميّز هذه المرحلة كلّها، لا على صعيد النتاج الأدبيّ فقط. ولا أعلم إذا ما زال بوسعنا إحياء النقاش حول التحقيب أو المجايلة (وأستذكر هنا تجربة محمد بنّيس)، أو حتّى استخدام المصطلح الأكثر تداولاً (اليوم والآن) وهو «الحساسية» الشعرية. وبرأيي، فإنّنا من الممكن أن نجد بنيات أو أنساقاً (ظاهرة ومضمرة) مشتركة بين كتابات جيل زمني معيّن، لكنّ هذا لا يعني أنّ هناك ملامح واضحة لهذه الكتابات، فقد يعيش بيننا اليوم مَن ينتمي نصّه زمنياً إلى الفترة العبّاسية، ومَن ينتمي نصّه فكرياً إلى (...). أمّا أنا فأشعر بالانتماء إلى المشترَك الإيجابي في «أجيال» و«حساسيات» متداخلة.

■ كيف هي علاقتك مع الأجيال السابقة؟

ليست علاقة أبوّة ولا أسعى لقتل أب (أدبيّ). هي علاقةٌ مع منجَز متراكِم يُشكّل في كُلّيّته روايةً جمعية، وهو خاضع للنقد وإعادة النظر وللإعجاب دون تقديس وتنزيه، ولولا وجوده لما كان يمكن الحديث عن تجاوُزه.. تكسيره، أو مجاورته.

■ كيف تصف علاقتك مع البيئة الثقافية في بلدك؟

متّصلة؛ إذْ أحرص على أن أتتبّع باستمرار، وقدر الإمكان، النتاجات الأدبية والفنّية؛ سواء في فلسطين، أو المغرب حيث أُقيم مؤقّتاً، ولديّ علاقة متّصلة أيضاً مع «الوسط» الثقافي في البلدين.

مهنّد ذويب

■ كيف صدر كتابك الأول وكم كان عمرك؟

صدر بداية عام 2015، عن «دار الأعلام» بمدينة نابلس، بدعم من «جامعة القدس» التي كنتُ أدرُس فيها درجة البكالوريوس في تلك الفترة، وكنت أسّست فيها مع مجموعة من الأصدقاء المنتدى الثقافي والأدبي. ورغم «ندمي» على نشره فيما بعد، إلّا أنّ «التخلّص» من تلك النّصوص بنشرها كان ربّما ضرورياً لتجاوُزها وقياس المسافة بيني وبينها مع تقدُّم التجربة خطوات صغيرة.

■ أين تنشر؟

أكتبُ مقالاً سياسياً أسبوعياً في زاوية لي تحت عنوان «البحث عن المعنى» لدى صحيفة السوسنة الأردنية. أمّا النصوص الشعرية، فغالباً ما أنشرها عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو مجلّة «أفانين» التي أُشرف عليها، كما نشرتُ عملاً شعرياً جديداً نهاية عام 2022 بعنوان «نهايات محتملة للركض» صدر عن «دار أكورا» بمدينة طنجة المغربية.

■ كيف تقرأ وكيف تصف علاقتك مع القراءة: منهجية، مخططة، عفوية، عشوائية؟

في فترة ما، كانت منهجية ومنظّمة. أمّا الآن، فتتراوح بين العفوية والعشوائية، تتكوّم الكتب في مكتبتي، مطويّةً وبعضها بداخل بعض، وبمواضيع مختلفة، وتتراكم فوقها وفي وسطها «الجذاذات» الخاصّة بأطروحة الدكتوراه، لكنّني مرتاح لهذه العشوائية، وأثق بها، وتزعجني الرتابة.

■ هل تقرأ بلغة أخرى إلى جانب العربية؟

أتمنّى لو كنتُ «ذا لسانين» بتعبير كيليطو، ولو أنّني أستطيع القراءة والكتابة بلغات أُخرى، خاصّة بالفرنسية. لكنّني أضع هدفاً أن أتعلّم لغات أُخرى بشكل جيّد، وحتّى ذلك الوقت، أحرص على قراءة الأعمال المترجمة، سواء في الرواية والشعر أو في النقد والفلسفة والإدارة الثقافية وغيرها.

■ كيف تنظر إلى الترجمة وهل لديك رغبة في أن تُتَرجم أعمالك؟

الترجمة هي إعادة إنتاج من نوع خاص للنصّ الأساس، أو هي كتابةٌ فوق الكتابة الأصلية. وأعتقد أنّ ثمّة أعمالاً أكثر قابليةً للترجمة من أعمال أُخرى، بحيث يستطيع المترجم تخليق الفكرة وإعادة كتابتها بشكل سلس أو «شعريّ»، خاصّة في الشعر، كما أنّ المترجم له دورٌ أساسي في جودة الترجمة. أطمح لترجمة نصوصي الشعرية (لو كانت قابلة بشكل جيّد للترجمة).

■ ماذا تكتب الآن وما هو إصدارك القادم؟

رغم أنّني منشغل هذه الفترة بإنجاز أطروحة الدكتوراه حول أثر السياسات الثقافية التي تنتهجها المؤسّسة الرسمية على العملية الإبداعية، إلّا أنّني بدأتُ مغامرةً من نوع جديد، ربّما هذه المرّة الأُولى التي أتحدّث عنها. إذ أكتب (بشكل متقطع) مُحاولاً استكشاف إمكانية أن تُفضي بعض المسوّدات المترابطة تحت عنوان أوّلي هو: «المكان» إلى رواية، ليس فقط رغبة في «التجريب»، وإنّما محاولة لاستلهام (واستيهام) تجربة ذاتية عبر ثقافية في بيئات ومجتمعات مختلفة، لنقاش جملة من القضايا التي من الصعب نقاشها إلّا في إطار التخييل الروائي.

بطاقة

شاعر وكاتب وصحافي فلسطيني من مواليد عام 1996 في مدينة بيت لحم، باحث دكتوراه في السياسات الثقافية. حاصل على ماجستير في الأدب والنقد من «جامعة مولاي إسماعيل» بالمغرب وبكالوريوس في الأدب من «جامعة القدس». صدرت له ثلاث مجموعات شعرية: «همسات على هامش الوطن» (2015)، و«لا أريكُم ما أرى» (2018)، و«نهاياتٌ محتملةٌ للركض» (2022). أُدرجت إحدى قصائده للأطفال في المنهج الرسمي للصفّ الرابع الابتدائي في فلسطين.

إطلالة

مآل الترجمة

مزوار الإدريسي

اقتفت الدراسات الأكاديمية في العلوم الإنسانية، منذ مدّة، الخُطى والمناهج التي اتّبعتها العلوم الحقّة والتجريبية، إعجاباً بإنجازاتها، وسعياً منها إلى الاتّصاف بالعلمية على غرارها، ورغبةً في إقناع قارئها بأنّ خطابها البحثي لا يقلّ صرامة علمية عن العلوم التجريبية على الأقلّ، فظهرت فيها خطوات منهجية، ومناهج إحصائية، وروائز، وجداول، وغيرها.

هكذا، ظهرت في الجامعات مختبرات في مختلف المعارف الإنسانية، من سوسيولوجيا وأنثربولوجيا وجغرافيا وسواها، وكانت اللسانيات، وما تفرّع عنها من تخصّصات، رائدةً في هذا المجال، بعدما اعتمدت في أبحاثها بعض الآلات، كما هي الحال في علم الصواتة مثلاً، لتنتقل عبرها عدوى النزوع العلمي إلى النقد الأدبي، في مباحث كثيرة، وكان التوجّهُ الإحصائي الأوضح بروزاً فيها، لكثرة اعتماده على تعقّب تردّد كلمات بعينها في ديوان أو رواية، أو للوقوف على التغييرات في النصوص من منظور علمَي العروض والقافية، كما هي الحال في دراسة دواوين أو قصائد، بغاية تبيُّن نوعية البحور والأوزان والقوافي المعتمدة، مثلاً، وفي محاولة لإظهار إمكان إدخال التجربة النصّية حيّز المختبرات، حيث تُفصل الذات العارفة عن موضوع المعرفة اقتداءً بالعلوم التجريبية.

وواضحٌ أنّ اللغة هي المشترك بين الأدب والترجمة، وأنّ كليهما يشتغل بها بصفتها مادّة أُولى، وأنّها هي التي تسوغ انتماء هذا النشاط الذي يُعيد كتابة النصوص في غير لغتها الأصلية إلى حقل أدبي أجنبي، ولتُدخلها فضاءً ثقافياً آخر؛ لذلك ليس عجباً أن يدور الحديث عن مختبرات الترجمة في مواقع أكاديمية، وأن تكون موضوع مدارسة في ما أصبح يُعرف بمختبرات الترجمة.

ويتوهّم من يتصوّر العملية الترجمية نشاطاً آلياً يقتصر على التمكّن من معجم اللغتَين: المنقول منها والمنقول إليها، إضافةً إلى ضبط القواعد النحوية واللغوية، حتى ينجح في مهمّته. ويتهيّأ لي أنّ من يعتقد ذلك ينسى أنّ النشاط الترجمي عملية معقّدة، وأنّه، قبل تشكُّله مختبراً مؤلّفاً من أساتذة باحثين ومبدعين - يُنظّمون ندوات وينشرون كتباً ومقالات في مجلّات ويُقدّمون محاضرات - يصدر عن مشروع مميّز الملامح وذي أهداف منشودة، يكون مختبراً ذهنياً يعتمل في رأس المترجم، وتؤطّره رؤية ثقافية تستند، لا محالة، إلى تجربة انغماس لغوي وثقافي سابق في اللغة والثقافة المنقول منهما، ممّا يُيسّر نقلهما إلى لغة وثقافة أجنبيّتَين، في لغة مبيّنة جيّدة السبك، منسجمة الصياغة، وتجلي للمتلقّي في لغة الوصول ما فهمه المترجم من قراءته للنصّ في لغة الانطلاق، تحقيقاً للتواصل عبر الفهم والإفهام. وتتعدّد أشكال تحقُّق عمل مختبرات الترجمة في المؤسّسات الجامعية، فيتّخذ شكلَ قاعات للدرس مجهّزة بحواسيب تحوي برامج للترسطة (أي الترجمة السطرية subtitling)، وأُخرى تتوافر على أجهزة الدبلجة وبرامجها، وأُخرى تضمّ برامج مثل ترادوس Trados تضمن ترجمات عالية الجودة، توظّف فيها تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي، إلخ، فيستفيد الدرس الجامعي منها كثيراً، خصوصاً في الترجمة المتخصّصة، كالقانونية، والطبّية، والرياضية، والاقتصادية، وسواها.

ولا يخفى أنّ التحوُّل الرهيب الذي عرفته تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي في العقد الأخير، بما زوّدت به المعارف والمهن، وما أفادت به أشكال التفكير والعمل، لم تُفلت الترجمة منه، بل إنّ الخوف تملّك كثيراً من المشتغلين بالأخيرة، لأنّهم نظروا إلى الذكاء الاصطناعي بصفته تهديداً لها، قد يُفضي إلى الاستغناء عنها. والواقع أنّ الذكاء الاصطناعي - في شقّه المتعلّق بالترجمة - ذو أداء جيّد، بدليل اعتماد كثيرين عليه، في معظم الترجمات المتخصّصة ذات اللغة العلمية الاصطلاحية، التي لها قاموسها وتعبيراتها المصوغة ومسكوكاتها المتداولة. وقد حدا إيمان بعضهم بالمردود البيّن للذكاء الاصطناعي، وبالتقدّم المتواصل فيه، إلى القول بإمكان تحسينه، ليعتمد في الترجمة الأدبية، فيُستغنى بذلك عن المترجم الأدبي. ويبدو لي هذا الاحتمال مستبعَداً، لذلك أتحفّظ عليه، لأنّي أنظر إلى النصّ الأدبي بصفته كائناً ثقافياً ذا روح، مثلما يراه غادامير، وأنّ الآلة يستعصي عليها نقل هذه الروح إلى كائن ثقافي آخر، بينما يتيسّر ذلك للمترجم، الذي تكون له حساسيته الخاصّة في التعامل مع هذه اللغة بإيقاعاتها وصورها وتراكيبها، وهو ينفث تلك الروح في النصوص التي يعيد خلقها، والأجمل أنّه قد يُنتج في كلّ مرّة يعود فيها إلى النصّ نفسِه نصّاً مختلفاً عن الترجمة الأُولى أو السابقة، بينما يُقدّم الذكاء الاصطناعي النصَّ نفسه كلّما التُجئ إليه، ممّا يشعر القارئ ببرودته، بخلاف النصّ الذي يترجمه الإنسان، بما يمتلكه من رهافة إحساس، وروح، وذكاء، لا تجتمع في الذكاء الاصطناعي.

(أكاديمي ومترجم من المغرب)

فعاليات

تنطلق، عند الثامنة من مساء اليوم، في «الهيئة الملَكية للأفلام» بعمّان، فعاليات الدورة السابعة من تظاهرة **لوحات سينمائية: أيام الفيلم الإيطالي**، التي تتواصل ثلاثة أيام. من الأفلام التي تُعرض في التظاهرة: **الوهم** لـ **أليس رورفاتشر**، و**الأعسر** لـ **سالفاتوري ألوكا**، و**سعادة اعتيادية** لـ **دانييلي لوكيتي**.

تستضيف «مؤسَّسة الدراسات الفلسطينية»، عند الخامسة من مساء الثلاثاء الثلاثين من الشهر الجاري، أستاذ الأنثروبولوجيا الثقافية **علاء العزة**، في محاضرة افتراضية بعنوان **الجامعة الفلسطينية في زمن الإبادة: جامعة بيرزيت ومبادرة تعليم طلبة غزّة.. الفرص والتحديات**. يقدّم المحاضِر ويدير النقاشَ مجدي المالكي.

تُختتم، اليوم، في «المجلس الأعلى للثقافة» بالقاهرة، فعاليات الدورة الأُولى من **مؤتمر أدب الطفل العربي**، التي انطلقت أمس. يناقش المؤتمر محاور عدّة، مثل: أدب الطفل من الورقي إلى الرقمي، والآثار النفسية والاجتماعية والوسائل التكنولوجية الحديثة في تشكيل ثقافة الطفل، والتكنولوجيا والعدالة الثقافية.

تنطلق، عند السادسة والنصف من مساء الخميس المقبل، في «دار الثقافة نور الدين صمود» بمدينة قليبية التونسية، فعاليات الدورة الخامسة من **معرض قليبية للكتاب**، وتتواصل عشرة أيام. تشارك في المعرض أكثر من خمس عشرة دار نشر تونسية وعربية، وتُقام بالتوازي مجموعة من المحاضرات وإشهار الإصدارات الجديدة.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

حكمت يوسف كاتب

التغطية مستمرة

لا تخفى على أحد الظروف القاهرة التي يمر بها الصحافيون في قطاع غزّة، خلال تغطيتهم الحرب الإسرائيلية التي اندلعت شرارتها في السابع من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2023 ، خاصة أنّ الصحافة عموماً أجمعت على أنها حرب إبادة تستهدف الأخضر واليابس في القطاع المحاصر الذي تبلغ مساحته 365 كيلومتراً مربعاً.
ويمكن لي أن أفكر في كلّ تلك الأزمات التي واجهتها خلال عملي، في تحرير موقع «سوا» بعد اندلاع الحرب، وإصرارنا على الحفاظ على التغطية حتى تظلّ مستمرة، وتعرضنا خلالها لظروف غاية في التعقيد نتيجة تطوّر وارتفاع إيقاع هذه الحرب التي ما زالت مستمرة، وتجاوزت الـ226 يوماً على التوالي.
بدأت رحلة الكفاح الإعلامي والتغطية اليومية في يوم الثالث عشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر للعام 2023، وهو التاريخ الذي أجبرنا فيه قسراً وتحت التهديد على مغادرة مكاتبنا في بيت الصحافة بحيّ الرمال، في مدينة غزّة، والتوجّه نحو جنوب وادي غزّة. فمع إشراقة شمس هذا الصباح، أخبرني الزملاء أن هناك حركة غريبة لموظفي «منظمة الصليب الأحمر الدولي»، إذ إن جميعهم بدأ بجمع عائلاتهم والتوجّه نحو مقر المنظمة القريب من، مقرّ مؤسسة بيت الصحافة في شارع الشهداء غرب مدينة غزّة، حيث يتوجهون على الفور إلى مقرّات خصصت لهم في جنوب قطاع غزة، وفق ما علمنا لاحقاً.
كان المشهد في هذا اليوم صعبا للغاية، فالقصف الإسرائيلي لم يتوقف ولو لحظة واحدة سواء كان جواً أم براً أم بحراً، وسط حالة من التيه لدى المواطنين والزملاء الصحافيين، فالجميع يسأل (أين نذهب؟) ونحن نقف أمام مقرّ المؤسسة، نحاول تقصي الأخبار، وإجراء الاتصالات للتأكد من خبر الإخلاء الوارد من المؤسسة الأمنية الإسرائيلية لجميع الموظفين الدوليين في غزّة.
في تمام الساعة التاسعة والنصف صباحاً، تأكدنا من خبر الإخلاء وضرورة المغادرة إلى جنوب وادي غزّة، بناء على تعليمات جيش الاحتلال الإسرائيلي، حيث حملت أغراضي ومعداتي الصحافية وركبت السيارة وتوجهت إلى منزلي في غرب مخيم النصيرات وسط قطاع غزة، وأخبرت الزملاء بضرورة مواصلة التغطية الصحافية حتى صدور تعليمات جديدة.
تدبر بعض زملائي في هذا اليوم، أمورهم واستطعنا مواصلة التغطية من بعض المناطق القريبة من مقر مؤسسة بيت الصحافة، إلى حين ترتيب أموري في المنزل، حيث يلزمني توفير مصدر للكهرباء وكذلك الإنترنت، حتى نقوم بالمناوبة في التغطية الإعلامية والتي ستكون على مدار الساعة من دون انقطاع.
■■■

في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2023، بدأت رحلة العذاب والمشقّة اليومية في سبيل مواصلة التغطية الإعلامية ونقل الأخبار والصور والفيديوهات لمصلحة وكالة سوا الإخبارية، حيث تم تقسيم عمل الوكالة على ثلاثة محررين وهم المتوفرون في ذلك الوقت نظراً إلى وجود تيار كهربائي وإنترنت لديهم.
يبدأ نهاري منذ ساعات الصباح الباكر، بحمل البطارية وهي من فئة (100 أمبير)، والبحث عن مكان لكي أتمكن من شحنها بالتيار الكهربائي من أجل استعمالها من ساعات المغرب وإلى ساعات الفجر الأولى، وهي المدّة التي أشرف على التغطية الإعلامية بنفسي لمصلحة وكالة سوا الإخبارية.
رحلة البحث عن مكان يوجد فيه تيار كهربائي لشحن بطارية العمل، هي مهمة ليست بالسهلة بتاتاً، في ظلّ انقطاع كامل للتيار الكهربائي، فالأمر في حاجة إلى أن يكون لديك معارف وأصدقاء وجيران لديهم -على سبيل المثال- نظام طاقة شمسية أو مولد كهرباء كبير الحجم، إذ كنت أتناوب على شحنها عند أحد الجيران -تارة وتارة أخرى عند قريب لوالدتي لديه مولد كهربائي كبير.
ما إن أضع بطارية العمل على الشاحن وأطمئن أنها بخير حتى أغادر عائداً إلى البيت، حيث يبدأ غمار البحث عن توفير المأكل والمشرب لعائلتي الصغيرة التي تتكون من زوجتي وأطفالي الثلاثة وهم: يوسف (10 سنوات) وإيلا (8 سنوات) ومحمد (عامان ونصف العام)، والذين جميعهم ولدوا في سنوات الحروب والتصعيدات التي تشنّها إسرائيل على قطاع غزّة بين الفينة والأخرى.
أتوجه إلى السوق بشكل شبه يومي لجلب ما يتوفر من خضراوات -إن وجدت- في بداية هذه الحرب الشرسة، لطهوها للعائلة على موقد النار والذي هو الآخر في حاجة إلى رحلة بحث أخرى لجمع الحطب في ظل

رسم للفنان الفلسطيني شريف سرحان

عدم توفر غاز الطهي ومنع إسرائيل إدخاله إلى قطاع غزة المحاصر.
مع ساعات ما بعد الظهر أبدأ أنا وزوجتي بطهي الطعام المتوفر لنا ولأطفالنا على موقد النار فوق سطح منزل العائلة، إذ إن هذه المغامرة أشبه بحالة انتحار في ظلّ تحليق مكثف لكلّ أنواع الطائرات الإسرائيلية في السماء، لكنها لقمة الدم التي تحاول توفيرها لأولادك في حرب إبادة راح ويروح ضحيتها آلاف الأطفال والنساء.
وقبل حلول ساعات المساء، أتوجه إلى إحضار بطارية العمل من المكان الذي وضعتها فيه لشحنها بالتيار الكهربائي، وذلك للبدء بالتغطية الإعلامية من ساعات المساء وإلى ساعة الفجر الأولى، وكلّ ذلك يعتمد على وتيرة الأحداث والتي تتحكم في ساعات نومي، حيث إنني لا أكاد أنام ما بين ثلاث وأربع ساعات على مدار الـ24 ساعة.
■■■

قبل منتصف شهر تشرين الثاني/ نوفمبر للعام 2023، أبلغني أحد الزملاء المحررين الذين يعملون معي، أن شبكة الإنترنت انقطعت بالكامل في المنطقة التي نزح إليها في مخيم البريج وسط قطاع غزة، بعد غارة جوية إسرائيلية استهدفت أرضاً زراعية قريبة منه، ما زاد الحمل ثقلاً عليّ وعلى زميلي الذي كان لزاماً عليه أن يساعدني على المضي قدماً في مواصلة التغطية الإعلامية.
في السادس عشر من شهر تشرين الثاني، حلّت الكارثة التي كنا نتوقع حصولها في أي لحظة خاصة مع استمرار الحرب الإسرائيلية وإغلاق المعابر الحدودية بالكامل من طرف الاحتلال الإسرائيلي، وأعلنت شركة الاتصالات الفلسطينية عن انقطاع خدمات الاتصالات والإنترنت عن جميع محافظات قطاع غزة، وهو ما أدخل القطاع الإعلامي في حالة من الارتباك الشديد، خاصة أن كلّ صحافي يعتمد في تغطية الإعلامية على الاتصالات والإنترنت اعتماداً رئيسياً وأساسياً.

أتوجه إلى السوق بشكل شبه يومي لجلب ما يتوفر من خضراوات -إن وجدت- في بداية الحرب الشرسة

توقفت التغطية الإعلامية قسراً في 16 تشرين الثاني، بسبب انقطاع خدمة الإنترنت

توقفت التغطية الإعلامية قسراً بسبب الظروف التي ذكرتها آنفاً من انقطاع خدمة الإنترنت، ولكن إرادة الشعب الفلسطيني لا تلين، وتقوم بتطويع كل التحديات لصالحها مهما بلغ الثمن، إذ زارني أحد الأصدقاء ودعاني للذهاب إلى شاطئ البحر الذي يعج بالزوارق الحربية والتي تستهدف كل من يقترب من الشاطئ ، فقلت له: «يا رجل أتريد أن تقتلني؟» ضحك قليلاً، وقال لي، تعال لنعرف أخبار العالم ، فلدي شريحة إلكترونية، يمكن من خلالها الاتصال بشبكة الإنترنت بتقنية الجيل الخامس.
ذهبت أنا وصديقي في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر إلى مكان قريب من شاطئ البحر، إذ اتصل بالإنترنت عن طريق الشريحة الإلكترونية، وبدأنا نعرف الأخبار ونقوم بتحديث المعلومات بعد أكثر من 24 ساعة بتنا فيها مقطوعين عن العالم الخارجي، إذ قام بعدها بتركيب هذه الشريحة على هاتفي وأخبرني بكيفية استخدامها لمواصلة التغطية الإعلامية.
لحسن حظي كانت الشريحة الإلكترونية تعمل في ساعات الليل الأولى وتلتقط إشارة التغطية من محيط منزلي الكائن قرب مخيم النصيرات وسط قطاع غزة والقريب كذلك من منطقة البحر، وهو ما مكنني من مواصلة التغطية الإعلامية من خلالها. خلال كل ذلك كنت أستعين بالزميلة فداء التي تقيم منذ سنوات في تركيا مع عائلتها، إذ تقوم هي بالنشر على منصات مواقع التواصل الاجتماعي التابعة لوكالة سوا الإخبارية، في حين أتولى أنا تحديث الموقع الإلكتروني دفعة واحدة في ساعات الليل، وفق ظروف توفر الإنترنت من خلال الشريحة الإلكترونية.
استمر هذا الحال حتى عادت الاتصالات والإنترنت مرة أخرى بعد انقطاع دام عدة أيام متتالية، ولكن لسوء الحظ أخبرني آخر زميل محرر معي أنه اضطر إلى النزوح من المكان الذي يوجد فيه بمدينة رفح إلى مكان آخر، مكان ليس فيه تيار كهربائي دائم أو إنترنت يمكن من خلالها المساعدة في مواصلة التغطية الإعلامية.
مع مرور أيام الحرب ازدادت الأوضاع تعقيداً، فبتّ أنا الوحيد رفقة الصديقة فداء، نواكب التغطية الإعلامية لوكالة سوا الإخبارية، إذ تتولّى هي التغطية عبر منصّات التواصل الاجتماعي، فيما أنتظر شحن البطارية بالكامل، لكي أحدّث الموقع الإلكتروني في ساعات المساء حتى الفجر، وهذه العملية استمرت حتى منتصف شهر مارس/آذار تقريباً، إذ ساعدت أحد الأقرباء على شراء لوحة طاقة شمسية وتوصيلها بشكل مباشر على البطارية، ومن خلال جهاز كهربائي، يجري تحويل الكهرباء إلى المنزل، إذ إنّ هذه العملية ساعدتني كثيراً في مواصلة التغطية اليومية على مدار الساعة، إلا في حالة انقطاع الإنترنت، حين نستخدم الشرائح الإلكترونية لمواصلة تغطية الحرب ومتابعة عملنا حتى لا ننقطع عن التغطية.

سلمان أسامة أحمد كاتب

ثلاثة أجسادٍ مجهولة الهوية

سألتُ الممرض الذي يقف عند كتف الباب يدخن سيجارته بصوت منخفض وممزوج بالتعب: أين خيمة الشهداء مجهولي الهوية؟
أشار إلي بيده -التي يحمل بها السيجارة- في اتجاه معين، من دون أن ينطق بكلمة... تراجعتُ وبدأت أمشي بخطواتٍ قصيرة ومتعثرة، كدتُ أسقط فيها مرات عديدة، باتجاه تلك الخيمة الملطخة بالسواد، خُيّل إليّ أنني شممتُ رائحة الموت تفوح منها، أذكر ذلك اليوم جيداً، نهار الجمعة 19 كانون الثاني/ يناير... سُئِلتُ هناك بشكل آلي عمّن أبحث... أجبت: «أخي محمد، مفقود منذ 7 كانون الثاني، حين دخل الجيش المخيم، واقتحموا بيتنا وأطلقوا عليه النار». كنتُ سأكمل حكاية محمدٍ لو أنّ الرجل الذي سألني ولا أذكر ملامحه الآن أبدى قليلاً من الانتباه إلى ما أقول... شعرتُ بالكلمات تتراجع إلى حلقي، كانت كلمات حارة، أخبرني أنّ «هناك أربع جثث مجهولة الهوية، وصلت إلينا اليوم من مخيم المغازي، تعرفتْ عائلة على واحدة من الجثث ودفنتها، وبقيت ثلاث هناك في استطاعتك الكشف والبحث عن أخيك بينها».
كانت الكلمات فجّة، كيف سيكون أخي محمد واحداً من تلك الأجساد الميتة، كيف تُسرق الحياة من جسد أخي هكذا فجأة، كيف يغادرنا من دون وداع، أو عناق أو حتى كلمة أخيرة. حدّقتُ في تلك الأكياس البيضاء، في زاوية الخيمة، نظرتُ إليها بتردّدٍ لم أشعر أن محمد، أخي محمد الذي ظلّ يركض بإصرار في شوارع المخيم ويعود إلى البيت مرّة بعد مرة، هو نفسه أحد تلك الأجساد التي بدأت تتضاءل، وتشكل عبئاً على حارسها، لم أكن أتخيل يوماً، أن أقف هنا، بينما الخوف يأكلني، ويهزني، من أن يكون وجهه، واحداً من تلك الوجوه الثلاثة التي سحبت منها الحياة... شعرتُ بضرب على كتفي، وإذا برجلٍ خمسيني، يلبس دشداشة بيضاء مائلة إلى الصفرة، متسخة قليلاً، يسارع بالدخول إلى هذه الخيمة، باندفاعة من ينشد الخلاص ويرجو معرفة مكان ابنه، راقبتُ حركته من بعيد، أتذكر تلك المشاهد جيداً، يطوي دشداشته بين قدميه، ينزل ببطءٍ درامي، يتحسّس بيدٍ ترتجف تلك الأجساد الذابلة، يضع يديه على أول جسد، عرف أنّه يلمس القدمين، تحرك خطواتٍ سريعة عند الرأس، وبدأ بفك الرباط الذي يخفي معلومة تُغيّر حياته، وحياتي إلى الأبد، أزاح تلك القماشة عن الوجه، سقط على الأرض مُلتاعاً، كان يبدو عليه الخوف ظل يسحب أنفاسه بصعوبة، وكان المشهد أمامي مباشرة، عاد واقترب من الجسد النائم، لم يبكِ لم يكن ولده، ولم يغلق القماشة على الوجه مرة ثانية... ظلّ يحدق، ويحدق، ظننته يعرفه، تجرأتُ حينها وتقدمتُ خطوتين مذعورتين فقط، وصار الوجه على مرأى من عينيّ، أنظر إليه مباشرة ولم يكن محمداً، ولا ابن الرجل.

تعرفتْ عائلة على واحدة من الجثث ودفنتها، وبقيت ثلاث هناك في استطاعتك الكشف والبحث عن أخيك بينها

بدأ يتمتم، يهمس بكلماتٍ لم أسمعها جيداً، أغلق الضوء على الجسد المسكين النائم الذي لم يعرفه أحد، مرتجفاً، راح يبحث في الجسد الآخر، عن علامةٍ ما تخبره أنّ هذا الولد هو ابنه، ولا أتذكّر ما كان اسمه ولم أسمع الرجل يناديه، تساءلتُ حينها، إذا كان سيعيد المشهد الدرامي نفسه، لجلوسه بجانب الرأس، وفك الأربطة المغلقة بإحكام، وإن كان هذه المرة سيجد ابنه، أو أجد أنا أخي محمد!
بسرعةٍ أكبر هذه المرة، فعل ما فعله في المرّة الأولى، وبدأ يكشف عن وجه الجسد الآخر واقتربتُ خطوتين أكثر، طلقة في العنق، وفم منفرجٌ بطريقة محزنة، وجه هادئ خالٍ من أي تعبير، صف أبيض من الأسنان المرتّبة، وذقن كثيفة بعض الشيء، وعينان بدأ الموت يأكلهما، وينسيهما كل الصور والمشاهد التي جمعتها خلال حياته يأكل من ذاكرته كل الوجوه المألوفة والتي يحبها، يداه كاملتان، قدماه كاملتان، في استطاعة عائلته أن تحتضنه، وتودعه وتقبله، وتعرف أين ينام ولدها في مكانه الأخير، جسد طازج وشهي للموت، ولا عائلة تبحث عنه، لم يكن ذلك الجسد لمحمد، وليس ابن الرجل الخمسيني الذي أصابه الإرهاق وبدأ يرجف بكلّه أمامي وأمام الرجل الواقف على باب الخيمة، يرقبنا بلامبالاة؟ ربما... باعتبارهذا المشهد حدثاً اعتاد عليه ويحدث منذ أيام كثيرة.
أمسكتُ بالرجل يُهتزّ، جلده جاف ويبدو أنه يريد أن يصرخ صرخات عالية مكبوتة، كان ممزّقاً ويائساً وغاضباً، ولم يكن من السهل تصريف كل هذا الثقل من قلبه بدا لي أنّ الرجل يحترق، منذ مدّة طويلة ومن دون لهب... نظرتُ في عينيه طويلاً، لم أتكلم لم يخرج الصوت مني، كان مكتوماً ومسحوقاً داخلي، وظلّ هناك جسدٌ ممتد ينام في آخر الخيمة بجانب رفاقه، ينتظر دوره في الكشف عن وجهه، يبحث عن شمسٍ تمنحه الحياة مجدداً، في أن تلمسه نسمة هواء وإن كانت حارة أو تلمسه يدُ العائلة، يد أب تبحث عنه، دموع عين تروي عطشه، أو رائحة يعرفها جيداً.
تطوعتُ للكشف عن الجسد الثالث، تدور عيناي في المكان، ويدور رأسي وأنا أفتش في داخلي عن معنىً لكلّ ما أفعله، قرفصتُ عند رأس الجسد الممتد أمامي، المستسلم حتى آخر حدود الاستسلام، دعوتُ الله، سألته ألّا تطول هذه الثواني البطيئة، تحسستُ مرتبكاً قماشة الجسد الأخير، شعرتُ أنّي أدفعُ شيئاً ثقيلاً لم أستطع رفعه وحدي، دقات قلبي تتسارع تكاد تكسر القفص الصدري، يظهر الوجه شيئاً فشيئاً، وأغمضُ عينيّ، من العتمة... من العتمة البعيدة يطلّ وجه محمد، يبتسم لي، يلوّح بيده كما آخر مرة شاهدته فيها... يطلّ ثم يختفي؛ محمد ذو الـ35 عاماً، شاب متوسط الطول، ونحيل الجسد، له عينان خضراوان مثل عشب، وجبين منبسط، وشعره بلون القمح، هادئ وخجول بعض الشيء، يلعب كرة القدم منذ كان في العاشرة ربما، أو قبل ذلك بقليل، يسدد بقدمه اليسرى، تسديداته غالباً ما تتحوّل إلى أهداف. كان يقرأ الشعر في مرحلةٍ ما من حياته ولا أعرف لماذا توقّف.
■■■

رفض محمد الخروج من البيت، حتى بعد أن قصفوا المنزل الذي وراءنا، والمنزل الذي أمامنا، ومع اشتداد استهداف الجيش المتواصل للمنطقة حُشر محمد والبيت بين قصفين في الوقت نفسه، لم يغادر... ظلّ هناك يمارس عاداته اليومية، يشعل ناره ويغلي فنجان القهوة... يجلس عند عتبة البيت يدخّن سيجارته وفي داخله عدم فهم عميق لما جرى. كيف يختفي شاب مثل محمد وتنقطع أخباره عنّا ولا نملك أي معلومة واحدة عنه ولا حتى المعلومة الأساسية التي نبحثُ عن إجابةٍ لها، هل هو على قيد الحياة؟ دخلوا عليه البيت، أطلقوا النار، رصاصتين استقرّتا في جدار غرفة نومه، استطاع أن يفلت لكنّه بعد ذلك أراد العودة إلى البيت، ولم يعد، والسؤال ذاته، منذ 120 يوماً أين محمد؟
أفتح عينيّ، وأكشف عن الوجه بسرعة. ليس محمداً. جررتُ قدميّ كانتا ثقيلتين بالفعل، أجرّهما كما لو أنّ كلّ واحدة منهما كتلة إسمنتية كبيرة، صخرة، كان الهواء يعبق برائحة الموت والدم، وكنتُ أريد أن أتنفس. ببطء تام وذهولٍ خرجتُ لاهثاً، تاركاً خلفي خيمة، وثلاثة أجسادٍ مجهولة الهوية، وعند خزّان الماء الصدئ وقفتُ أعب من الماء، وأغمر به جسدي، شعري، عينيّ اللتين شاهدتا كل ما حدث، أردت أن أغسلهما من الداخل بالدمع أو الماء... غرقتُ في الماء كشخص لم يغتسل منذ زمن...
عدتُ إلى الخيمة، ينتظرني والدي الذي ما إن شاهدني حتى قفز من مكانه كمن أصابه تيارٌ كهربائي وانتفض جسده، سألني بصوتٍ مبحوح شبه غائب: «لقيته؟»... والدي الذي يؤمن بعودة ولده الغائب يوماً ما، بعد أيام الغياب، يقرأ في سورة يوسف ويشعر أنها حكايته الشخصية... يطمئن قلبه أنّه حتى في البئر المظلمة، كان هناك أملٌ ما.
خفضتُ رأسي، شعرتُ أنّني منهك... وأنّني أريد السقوط في نومٍ عميق، أقول فيه وداعاً، ثمّ أقفز خارج كلّ شيء.